تشيرتشل ، وهو ضابط اركان الحملة البريطانية الى سوريا ضد محمد علي المصري يقول : « ... لا بد ان يكون جليا لكل عقل انكليزي ، لاسباب واضحة ، انه اذا اريد دعم سيادة انكلترا على الشرق ، فيجب جعل سوريا ومصر تخضعان لها الى حد ما ، او لنفوذها ... وانه عندما لا تعود فلسطين تركية ، يجب اما ان تصير بريطانية او ان تؤلف جزءا من دولة مستقلة جديدة ... تكون قادرة على تعزيز الهدف العظيم الذي ستوجد من اجله ... وهو خلق وانماء ودعم علاقات تجارية في الشرق » (هـ. س. تشيرتشل ، استشهد به جبور ، ١٩٧٠ ، ص ٢٢ — ٢٣) .

كان الاستعمار الاستيطاني قد سبق ان برز كآلية اوروبية لفتح البلدان الافريقية والاسيوية للتسلل الاقتصادي والسياسي . وابتدأ الاستيطان الاوروبي في جنوب افريقيا منذ عام ١٦٥٢ عندما اسست شركة الهند الشرقية الهولندية محطة بحرية في رأس الرجاء الصالح . وسرعان ما اتسعت هذه المحطة البحرية متحولة الى مستعمرة من المزارعين الذين اغتصبوا الاراضي الاهلية ودفعوا الى الوراء او ابادوا افراد شعبي البوشمان والهوتنتوت الاهليين . ومع انحطاط هولندا وصعود بريطانيا ، احتلت انكلترا المنطقة في اوائل القرن التاسع عشر . واستمر التوسع الاستيطاني معظم القرن التاسع عشر الى ان عززت الحرب بين الانكليز والبوير السيطرة البريطانية عام ١٩١٠ . واثناء ذلك تم استعمار الافريقيين المحليين ، الذين يسمون الان البانتو ، واغتصاب اراضيهم .

وفي المشرق العربي برزت الدعوات الى الاستيطان الاوروبي في القرن التاسع عشر . فالدكتور طوماس كلارك كتب عام ١٨٦١ ملاحظا : « اذا كانت انكلترا ... تعتمد على تجارتها بوصفها حجر الزاوية لعظمتها ، واذا كان احد اقرب وافضل الطرق لتلك التجارة هو عبر محور القارات العظيمة الثلاث ، واذا كان اليهود في الاساس شعبا ... تجاريا ، فاي شيء طبيعي اكثر من ان يصار الى زرعهم على طول الطريق الرئيسية العظيمة للتجارة القديمة » . (الدكتور كلارك ، استشهد به جورج جبور ، ص ٢٣) .

وكتب مسؤولون بريطانيون امثال اللورد شافتسبري في ١٨٧٦ ، يضيفون التصديق على الحجة : « ستصير سوريا وفلسطين قبل مضي وقت طويل في غاية الاهمية ... فالبلد يريد الرأسمال والسكان . وبامكان اليهود ان يعطوه كلا الامرين . أوليس لانكلترا مصلحة خاصة في تشجيع هذه الاعادة الى الوضع السابق ؟ ... فان امبراطوريتها الممتدة من كندا في الغرب الى كالكوتا واستراليا في الشرق الجنوبي ستقطع الى نصفين ... عليها ان تحتفظ بسوريا لنفسها ... وان تعزز الصفة القومية لليهود وتساعدهم ... ليعودوا كقوة تخمير الى بلدهم القديم ؟... فالى انكلترا اذا ، وبطبيعة الحال ، يعود دور تأييد استيطان اليهود في فلسطين » (استشهد به جورج جبور ، ص ٢٣) .

غير انه لم يبرز برنامج عملي لاستيطان فلسطين الا عند صعود الصهيونية ، وهي حركة سياسية بورجوازية ليهود اوروبا . وكانت الصهيونية غارقة كليا في الايديولوجيا الاستعمارية لذلك الزمن . وقد ضرب الفلاسفة والساسة اليهود الصهاينة على نفس الوتر . وكتب موسس هيس ، احد اوائل المفكرين الصهيونيين ، يقول : « بعد انجاز العمل على قناة السويس ، فان مما لا ريب فيه ان مصالح التجارة العالمية ستتطلب تأسيس مستودعات ومستوطنات على طول الطريق الى الهند والصين ، مستوطنات من شأنها ان تحول الاحوال المهملة والفوضوية للبلدان الواقعة على طول هذه الطريق الى دول شرعية ومهذبة . ولا يمكن ان يحدث هذا الا تحت الحماية العسكرية للدول الاوروبية » . وقال هس مخاطبا اليهود : « ان دعوة عظيمة محفوظة لكم : ان تكونوا طريق مواصلات حية الى الشعوب البدائية لاسيا ... يجب ان تكونوا الوسطاء بين اوروبا واسيا القصوى ، وتفتحوا الطرق المغضية الى الهند والصين — تلك المناطق التي لا بد من فتحهما للمدنية في النهاية » (م. هيس ، استشهد به س. هالبروك ، ١٩٧٤ ، ص ٢٢) .

وهيرتزل ، مؤسس الحركة الصهيونية التي كان هدفها استعمار فلسطين ، لاحظ كذلك ان مستعمرة يهودية « سيكون لها فائدة اخرى [للدول الاوروبية] في الزيادة الهائلة لتجارة صادراتها ؟